جمالية النسق التعبدي في الكون، أو موسيقى الكائنات من منظور النورسي: دراسة في الكليات[1]

إدريس التركاوي*

الملخص

للكائنات في تأملات النورسي وظيفة موسيقية جمالية في الكون، تتشكَّل من حركاتها المادية وتسبيحاتها الروحية، في دلالة ازدواجية مركبة تأبى التفكُّك؛ ما يستفز التدبر في الإنسان، ويدفعه إلى إعادة قراءة الكون والكائنات؛ قراءة تراعى فيها الوحدة الكونية والقانون التعبدي المشترك الجامع بين طبيعة الشيء المادية ووظيفته التوحيدية المعنوية، وليس الاكتفاء بإحداهما.

الكلمات المفتاحية: النورسي، النسق التعبدي، الجمال، الموسيقى، الكليات.

Aesthetic Worship Pattern in the Cosmos, or "Music of Creatures" from Nursi's Perspective: A Study of the Universals

Abstract

Nursi's reflections show that creatures have an aesthetic musical function which is composed of their physical movement and spiritual glorification, which comes in inseparable compound duality. This function provokes human contemplation that requires rereading the natural cosmos and creatures in such a way that takes into account the cosmos unity and the common worship law which bring together both the physical nature of things and their moral monotheistic function.

Keywords: Sa'id Nursi, Worship patterns, Beauty, Music, Universals.

---

[1] الكليات بمعناها المصدري لا بمعناها الاسمي، فليس المقصود كليات رسائل النور بوصفها علماً على الكتاب، وإنَّما بوصفها قواعد وكليات متناثرة في هذا الكتاب؛ لأنَّ دراسة الكتاب تحتاج إلى سوق تعريف به، وبمجمل محتواه، وبمؤلِّفه، وبأنواع الكليات الموجودة فيه... وهذا غير موجود في الدراسة، ولا بمقصود.

* دكتوراه في أصول الفقه ومقاصد الشريعة من جامعة ابن زهر كلية الشريعة/ أكادير-المغرب سنة ٢٠١٦م، يعمل أستاذاً في السلك الثانوي التأهيلي في إحدى حواضر المغرب الأقصى البريد الإلكتروني: driss_tar@hotmail.com

تم تسلم البحث بتاريخ ٢٠١٦/٣/٢٩م، وقُبل للنشر بتاريخ ٢٠١٦/١١/٢٨م.

مقدمة:

لو شئنا كشف حقيقة الإنسان لقلنا إنَّه مادة ونور، أو نفس وروح. وحيث قُدِّرَ أنْ تتشكَّل طبيعة هذا الإنسان من النوعين معاً كان أصل الخير والشر راجعاً إليه من نفس هذه الطبيعة المضاعفة المزدوجة: النفس رمز الشر والتمرد، والروح رمز الخير والجمال. وما بينهما طفق الإنسان منذ القدم يرسم بأفعاله لوحات المكابدة وتجليات الحضارة والعمران؛ تخلية للنفس من الشر، وتحلية لها بالخير. فلا جرم كان فعل النهوض الحضاري وتأسيس مقاصد المجتمع والأُمة لازماً لإصلاح جسم النفس أولاً؛ فالنفس شجرة، والمجتمع أو الأُمة ثمرة، وهل كانت الثمرة إلا بالشجرة؟

وقد كان نور القرآن هو ماء الحياة في هذه الشجرة، ومُناخها الجميل الذي يعيد لها الحياة المتوازنة، كلما ذبلت أوراقها، وانحنت أغصانها مُؤْذِنةً بالأفول واليبوسة. إنَّ إشارات القرآن أطياف غيبية، وخيوط نورانية تخترق بنا أعماق الزمان والمكان حيث تنسج النفس، وتأخذنا إلى حيث يرتع الجلال والجمال بين آفاق الروح وأصدائها الغيبية. ولكن من دون أنْ تُنْسِينا واقع أنفسنا الابتلائي، بل العملية مراوحة بين صعود للارتشاف والتزود وهبوط للمكابدة والتعبد.

إنَّ الدخول في فضاءات القرآن معناه استشراف تلك الأصداء، واستمطار أندائها الشفيفة اللامعة المُحمَّلة ببرد عفو الله ورحمته؛ لإطفاء نار الشهوات المفرطة، وإخماد جمرها في عالم النفس، وتوجيه متعها ومستلذاتها لخدمة النسق التعبدي الكوني؛ ما يجعل الإنسان أَهْلاً لميلادٍ جديد بعقلٍ جديد وقلبٍ جديد، فيقدح الزناد الأول لوهج الحضارة وتنوير العمران.وهل موقد النار والنور سوى قدح الشرارة الأولى؟

بهذا المعنى، فقد غدا الكون لازماً ضرورياً لنفس الإنسان؛ لأنَّه –بكائناته وطيباته– مرتعها، فأيُّ اهتمام به هو اهتمام بها، وأيُّ إهمال له سيؤدي حتماً إلى إهمالها.

وتبعاً لهذه العلاقة العضوية الضرورية، لم يعد الكون في منظور النورسي طبيعة جامدة ومصنوعاتٍ صُمّاً، وإنَّما شريعة فطرية يَلزم ضرورة أنْ تكون جنباً إلى جنب مع الكلام

الإلهي؛ إذ كلاهما مُطلَق، وهل القرآن إلا معادل موضوعي للكون، وفهرسة بيانية لجواهر الكائنات وأعراضها؟

النفس والكون والوحي؛ كلها كانت أثافي بناء الحضارة في منظومة النورسي الإصلاحية، وهي مجالاتها في الوقت نفسه. وحيث كانت نظرته عميقة عمق كل نظرة مُجدِّدٍ ديني إلى العالم، كانت نتائج الحراك الإصلاحي بين هذه الأثافي الثلاثة أعمق من أنْ تُخندَق في زاوية من العلوم، أو تُؤطَّر ضمن إطار متداول فيها؛ فهي منظومة مُطلَقة عن الاسم، مُفعَمة بالنور، كإطلاقية قائدها (القرآن الكريم)، ونورانية رسائله، فكانت منه وإليه. فلا عجب أنْ خطفت –حتى في لقبها– صفة منه (كليات رسائل النور)، ترميزاً إلى بُعْدها الكلي الذي يشع بالنور. وشأن النور اكتساح غيابات الظلام، وتجلية سحبه المتراكمة أنَّى كانت، ومتى كانت. وهل من قادر على التحدي سوى كلمات الله المُحمَّلة بنور الماوراء؟

تأسيساً على ذلك كله، انطلق عملاق الأناضول في سياحة قلبية كونية للتفاعل مع الكائنات، واستقراء وظائفها؛ قصْد إنشاء مُدوَّنة من الإبداع الجمالي والإصلاح العلمي والحضاري بصورة لم تكن معهودة عند مَن كان قبله، ولا خطَّتها أيمانهم.

نحاول في هذه الجولة الكشف عن أسرار علاقة النورسي النفسية بالكون، والوقوف مع منطقه الوجداني في ارتباطه بالكائنات، بوصفها مخلوقات تتعبد بالطبع والوظيفة، وليس فقط مصنوعات مادية، أو أشياء جامدة. ولقد فاض من نسقها التكويني التعبدي مشاهد جمالية ولوحات فنية، كان لصداها في وجدان بديع الزمان انعكاس تصويتي في صورة ترنيمات وألوان وإيقاعات وحركات... فكانت (موسيقى الكائنات).

فما دلالة موسيقى الكائنات عند بديع الزمان؟ وما وجه ارتباطها بمنظومة الجمال عنده؟ وكيف اتخذها مسلكاً لرصد بعض القيم الإنسانية والكونية المشتركة في الخلق، وكذا دحض قوانين الطبيعة الجامدة كما في الفلسفة المادية؟

أولاً: مشاهد ترتُّب الجمال، وتكوين أصل النسق التعبدي

يقول النورسي في معرض حديثه عن مبادئ تكوين الكائنات والأنفس: "إنَّ الموجودات آثار قدرته، ومكتوبات قدَره، ومرايا أسمائه، وتمثُّلات أنواره."[٢]

تُعَدُّ هذه القاعدة التعريفية بالكائنات -في الرسائل كلها- أهم كلية مختصرة تنسيقية بين طبيعة الكون ووظيفته التعبدية، أو مقاصده الوجودية. ويمكن تفكيك عناصرها على النحو الآتي:

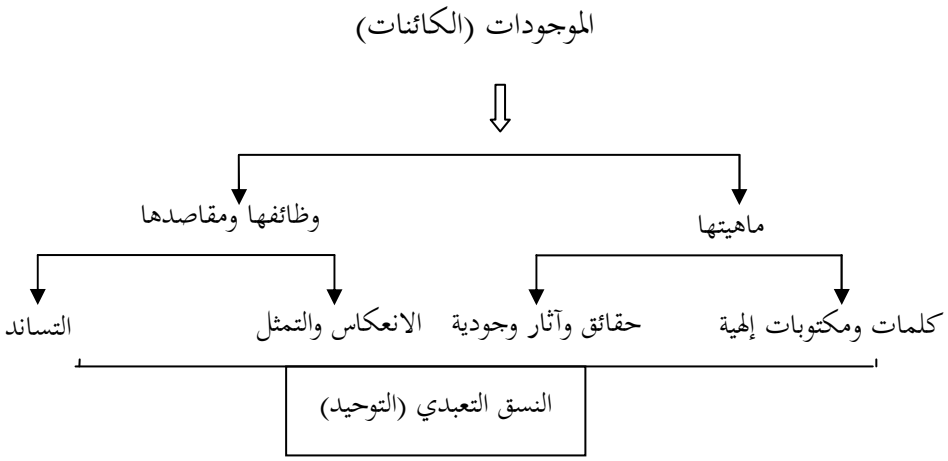

١. مشهد تشخُّص الكلمات:

تبدو حقيقة الأشياء عند النورسي كلمات ومكتوبات في علم الله ومشيئته التكوينية، ثم حين يقضي بها بموازين مُقدَّرة وأقضية محسوبة تصير حقائق خارجية مادية. فالله "زين السماوات بكلمات الشموس والأقمار والنجوم... وأنطق جو السماء بكلمات الرعود والبروق وقطرات الأمطار،"[٣] "وجعل كرة الأرض تتكلم بكلمات بما بث فيها من الحيوانات والنباتات التي هي كلمات."[٤] ولا يخرج الإنسان في منطق التكوين الإلهي عن

[٢] النورسي، سعيد. **اللمعات**، ضمن: **كليات رسائل النور**، القاهرة: سوزلر للنشر، ط٤، ٢٠٠٥م، ص٤٨٨.
[٣] النورسي، سعيد. **الكلمات**، ضمن: **كليات رسائل النور**، القاهرة: سوزلر للنشر، ط٤، ٢٠٠٥م، ص٨٠٢.
[٤] النورسي، **الكلمات**، مرجع سابق، ص٨٠٢.

النسق. "حسبي من الحياة ووظيفتها كوني ككلمة مكتوبة بقلم القدرة، ومفهومة دالة على أسماء القدير المطلق."[٥]

فالكلمات في بُعْدها القرآني أسماء محفوظة، ثم تتشخَّص وتتكوَّن في الوجود في صورة ابتلاءات أو أجسام، على وزان قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ (البقرة: ١٢٤)، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾ (النساء: ١٧١)؛ أي كلمات تكوينية مُتمثِّلة في اختبارات خارجية، أو كائنات وجودية مخلوقة؛[٦] لأن كلمات الله في نهاية المطاف "نوعان؛ كلماته الدينية المُتضمِّنة شرعه ودينه كالقرآن. وكلماته الكونية التي بها كون الكائنات."[٧] والمقصود بالأصالة عند النورسي هذه الثانية؛ أي التكوينية، وليس التشريعية الخاصة، وسنُبيِّن ذلك من مجموع نصوصه فيما بعدُ بصورة أوضح.

وبهذين البُعْدين (أي التكوين، والتمثُّل) راح النورسي يرسم صورة تعبدية نسقية للكون والكائنات، بمَن في ذلك الإنسان، حتى يسلس له النقد والتقويم لقوانين المادة والغريزة، ويخلع على الأشياء وظيفتها التوحيدية الكونية، بمقتضى القانون التكويني المشترك، الراجع إلى مبدأ كتابة الكلمات، وتجلي الأسماء والصفات.

٢. مشهد تجلي الأسماء والصفات:

يُعَدُّ مشهد الأسماء والصفات في تكوين المخلوقات وفلسفة القضاء والقدر أحد أعظم المشاهد الإلهية في الكون. يقول ابن القيِّم في ذلك: "وهو من أجلِّ المشاهد (...)

---

[٥] النورسي، سعيد. **الشعاعات**، ضمن: **كليات رسائل النور**، القاهرة: سوزلر للنشر، ط٤، ٢٠٠٥م، ص٩٩.

[٦] ينبغي التفطُّن إلى أنَّ لفظ "التمثُّل" ليس بمعناه المسيحي الذي يُقرِّر تجسُّد القديم في المُحْدَث، فيصير منه؛ فهذا لا شكَّ كفر وشرك، وإنَّما تجسُّدٌ وتمثُّلٌ للكلمات؛ أي تشخيصها، وتكوينها، وتحقُّقها في الخارج في مخلوقات مُحْدَثة فانية. وقد أورد القرآن المعنيين معاً، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ (آل عمران: ٥٩)، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (النساء: ١٧١). فالكلمة توجب تفرُّد الخالق بصفة خلقه واختياره وإرادته. والعبدية والمخلوقية في المخلوق تفيدان عدم مشاركته الخالق في صفاته. والمسيحيون مالوا إلى جهة واحدة، فزاغوا وزاغت قلوبهم.

[٧] ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم. **درء تعارض العقل والنقل**، تحقيق: محمد رشاد سالم، المملكة العربية السعودية: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط٢، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ج٧، ص٢٦٦.

والمطلع على هذا المشهد: معرفة تعلُّق الوجود خلقاً وأمراً بالأسماء الحسنى، والصفات العلا، وارتباطه بها، وإنْ كان العالم بما فيه من بعض آثارها ومقتضياتها."[٨]

فبمقتضى هذا المشهد يشترك الإنسان مع الكون، ويتساوى الحقير مع العظيم في الكَمِّ والمقدار والهيئة؛ وذلك أنَّ الأسماء والصفات وإنْ كانت تقضي بوجود التنوُّع والتكاثر والتفاوت؛ "لأن الأسماء في الكون متداخل بعضها في بعض كالدوائر المتداخلة، وألوان الضوء السبعة،"[٩] فإن كلمات الله المكتوبة بقلم القدرة توجب التساوي في المرتبة بين هذه الكائنات بالنسبة إليها؛ إذ "لا مراتب في تلك القدرة، فتتساوى بالنسبة إليها الذرات والنجوم والقليل والكثير."[١٠] وذلك حتى يكون الاهتمام بالذرة بالنسبة إلى القدرة كالاهتمام بالمجرة في الإعجاز.

ولا شكَّ في أن هذا التباين في الماهيات والتساوي في الكلمات مع اختلاف الاعتبار هو الذي أضفى على الكائنات طابع التساند والانتظام. "كل منها يسند الآخر ويمده، كل منها يكمل أثر الآخر ويزينه."[١١] فتبايُن حقائقها وتنوُّعها يُلوِّنها بألوان متنوعة في طبائعها، بيد أن قدرة الله ومشيئته وحاكميته المتفردة تخلع عليها التساند والانسجام والتعبد والخضوع الاضطراري؛ استجلاءً لحقيقة قانون التوحيد فيها، وهو نسقها التعبدي، ومحورها الذي تدور عليه. فالتوحيد مقصد غائي بالنسبة إلى تباينها وتساندها وتعاونها، وهذه بالنسبة إليه عناصر ومظاهر تحمل جوهره وروحه.

بهذا المعنى فإنها صارت مرايا تعكس تجليات هذه الأسماء، وتحكي نوعاً من جمالها، ولكن من دون أن تتجاوز لباسها الذي أَلْبَسَتْهُ لها القدرة، وفصَّلته قوانين القضاء والقدر، حتى كأنَّ لكل كائن لباسه الخاص الذي يعكس بألوانه وهيئاته شعاعات الأسماء ولمعات الصفات. "فقد أنشأ الله كل شيء –جزئيه وكليه، صغيره وكبيره– بمثابة موديل يُلْبِسُه

---

[٨] ابن قيِّم الجوزية، محمد بن أبي بكر. **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، بيروت: دار الكتاب العربي، ط٣، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ج١، ص٤١٨.

[٩] النورسي، سعيد. **المكتوبات**، ضمن: **كليات رسائل النور**، القاهرة: سوزلر للنشر، ط٤، ٢٠٠٥م، ص٤٢٩.

[١٠] النورسي، **اللمعات**، مرجع سابق، ص٤٨٤.

[١١] النورسي، **المكتوبات**، مرجع سابق، ص٤٢٩.

مئات منسوجات صنائعه المـُنَقَّشَة بنقوش مُتجدِّدة بمئات الأشكال والأنماط، مُظهِراً بها تجليات أسمائه الحسنى ومعجزات قدرته."[١٢]

٣. مشهد التصوير الفني:

إذا ثبت أنَّ ماهية الكائنات وتمثُّلاتها هي تجليات الأسماء، وثبت ضرورة أنْ يترتب على هذا التجلي تنوُّع وتبايُن في الماهيات والطبائع؛ ظهر أنَّ مدرك الجمال في هذه الكائنات راجع إلى طبيعة هذا التنوُّع والتبايُن. فعناصر الصورة الفنية المُتمثِّلة في الحركة والصوت والصورة والإيقاع[١٣] –عند النورسي– هي مادة المشاهد في شاشة الكون، وهي أعراض متنوعة، وكيفيات متباينة تعرض للمخلوقات، وتُشكِّل مشاهد من التصوير الفني يشبه أنْ يكون مثل مشاهد السينما المتحركة، أو مقاطع المعزوفات والأنغام المتآلفة. غير أنَّ هذا كله إنَّما هو في ذاته انعكاس لجمال مشهد الأسماء والصفات القاضية بالتنوُّع والتلوُّن.

وعلى هذا، فإنَّ الأمر دائر بين مشهد الأسماء والصفات ومشهد التصوير الفني الجمالي. فالأول وجودي علمي، والثاني ذوقي إحساسي. وكل ما في الكون لا يخرج عن طبيعة هذين المشهدين. يقول النورسي مُستشعِراً تأثير الأسماء والصفات ودفعها الكون لمحاكاة نقوشها ومظاهرها: "والأسماء بحد ذاتها لا بُدَّ لها من الظهور، فتستدعي إظهارَ نقوشها، وتقتضي مشاهدةَ تجليات جمالها في مرايا نقوشها وإشهادها."[١٤]

فهي أشبه ما تكون بالمحرك، والكون كله مجال حركتها ومظهرها. يقول في ذلك: "الكرة الأرضية أخذت بهذه الحركة طور ماكينة السينما التي تُبيِّن المشاهد وتعرضها،

---

[١٢] المرجع السابق، ص٣٠١.

[١٣] على أساس أنَّ مصطلح "المشهد" يدل على وجود هذه الأركان عند نُظَّار التصوير الفني. يقول سيد قطب: "والذي استعرضته هنا هو ما اصطلحنا على تسميته "مشاهد"، وهو الذي تتوافر فيه الصورة والحركة والإيقاع". انظر:
– قطب، سيد. **مشاهد القيامة في القرآن**، القاهرة: دار الشروق، ط١٦، ٢٠٠٦م، ص١٠.

[١٤] النورسي، **المكتوبات**، مرجع سابق، ص١٠٩.

فحَرَّكت ما في السماوات من نجوم، وبدأت تسوقها سوق الجيش، عارضةً مناظر جذابة ومشاهد لطيفة."[١٥]

فالحركة في النص توحي بوجود إيقاع وصوت، ومنه تبدأ جذور الموسيقى في طبائع الكائنات ووظائفها؛ امتثالاً لموجبات القدرة الإلهية والكلمات ونقوش الأسماء والصفات.

٤. الجمال والجلال منبع التسبيح وأصل النسق التعبدي:

الجلال والجمال صفتان ترشح بهما كليات الوجود وقوانينه الكونية، فلهما من الشمول والاستغراق لوظائف المخلوقات وأفعالها وحركاتها، ثم من الاستيعاب والاحتضان لسائر الأسماء والصفات، ما يجعلهما توصفان في منظومة الصفات بكليتي الصفات والأسماء. ولهذا نجد القرآن ينصبهما علمين على نظامي (الربوبية) و(الألوهية) في تدبير الكون والكائنات، على اعتبار أنَّ النظام الأول دال على الحاكمية والكبرياء، وقوام الثاني على الرحمة والرعاية. يقول النورسي في تفسير صدر سورة الفاتحة: "إنَّ لفظ (رب العالمين) كما يتجلى منه الجلال بسلسلته، كذلك يتراءى الجمال بسلسلته من (الرحمن الرحيم). إذ الجلال والجمال أصلان تسلسل منهما -بتجليهما في كل عالم- فروعٌ: كالأمر والنهي، والثواب والعذاب، والترغيب والترهيب، والتسبيح والتحميد، والخوف والرجاء إلى آخره...."[١٦]

فكل عناصر التكليف الشرعي للإنسان راجعة إليهما مثلما رأيت، وحيث كانت "الكائنات قد ارتبطت بنظام علوي دقيق، واستمسكت بروابط عجيبة."[١٧] وتلك حقيقة النسق التعبدي فيها؛ إذ كان لا بُدَّ أنْ ترجع لزوماً طبائعُها ووظائفها إلى تينك الصفتين الكليتين؛ لأنَّهما مادة النسق التعبدي. ولهذا "مَن تحرك بمسلكٍ في الهيئة الاجتماعية يلزمه أنْ لا يخالف حركة الجريان العمومي."[١٨] أي حركة النسق التعبدي المتُولِّدة من الجمال

[١٥] المرجع السابق، ص٢٠.

[١٦] النورسي، سعيد. **إشارات الإعجاز**، ضمن: **كليات رسائل النور**، القاهرة: سوزلر للنشر، ط٤، ٢٠٠٥م، ص٢٥.

[١٧] المرجع السابق، ص١٨٣.

[١٨] المرجع السابق، ص١٧٠.

والجلال. وهذه نتيجة مُسلَّم بها في سُنن الكون، وفي منطق التكوين الإلهي للمخلوقات عامةً.

وعلى كل حال، فإذا ثبت أنَّ الجمال والجلال هما مادة النسق التوحيدي التعبدي وجب أنْ تكون كل حركة في الكون مُخضِعة رقبتها -طوعاً أو كرهاً- لهذا النسق. وهذا اللزوم المنطقي الضروري في الأشياء هو الذي بَثَّ في مناكب الوجود تناغماً في حركة الأجرام، وانسجاماً في وظائفها، فتولَّدت منها معزوفات وأناشيد، ماهيتها التسبيح، ووظيفتها الخدمة للإنسان؛ سيدها ومقصدها الأصلي من وجودها. إنَّه تناغم بين العالم الأكبر (الكون) والعالم الأصغر (الإنسان). يقول بديع الزمان في ذلك: "إنَّ القدرة الإلهية تُظْهِر عظمة الربوبية في العالم الأكبر، أمَّا الرحمة الربانية فإنَّها تنظم النعم في الإنسان -العالم الأصغر- (...) إنَّ قدرة الصانع -من حيث الكبرياء والجلال- أوجدت العالم كله كأنَّه قصر عظيم ومزرعة جميلة، مثلما أسبغت رحمته -من حيث الجمال- صنوفَ نعمه على كل كائن حي، فجَمَّلَت الكائناتِ طُرًّا بالنعم وزينتها باللطف والكرم، دافعةً هذه الألسنة الصغيرة الناطقة بجمال الرحمة أنْ تقابل تلك الألسنة العظيمة الناطقة بجلال العظمة. أي إنَّ الأجرام الكبيرة كالشمس والعرش حينما تنطق بلسان العظمة: "يا جليل، يا كبير، يا عظيم"؛ تقابلها ألسنة الرحمة في البعوض والسمك والحيوانات الصغيرة: "يا جميل، يا رحيم، يا كريم"؛ مُكوِّنةً بذلك نغمات منسجمة في موسيقى كبرى."[١٩]

وإذا تباينت تجليات هاتين الصفتين في الوجود فليس ذلك بضارٍّ لنسقهما وحاكميتهما. وقد لفت النورسي انتباه المتأمِّل إلى ذلك بقوله: "أنصت إلى السماء كيف تنادي: يا جليل ذو الجمال! وأَعِر سمعك إلى الأرض كيف تُردِّد: يا جميل ذو الجلال!؛"[٢٠] لأنَّ طبيعة المخلوقات إنَّما وُضِعت على هذه الازدواجية في الكون انسجاماً مع مقتضيات القدرة الربانية الجلالية والرحمة الإلهية الجمالية. فحيثما سبقت إحداهما إلى عقل الإنسان وقلبه كانت الأخرى تابعة لها لزوماً، مُضمَرة في كيانها؛ لأنهما كذلك في الوجود، مثلما تنبض به مشاهد الأرض الجميلة المحفوفة بالجلال، ويعكس الجلال الظاهر

[١٩] النورسي، **المكتوبات**، مرجع سابق، ص٣٠٤.
[٢٠] النورسي، **الكلمات**، مرجع سابق، ص٣٧٧.

في مخلوقات السماء الرهيبة مظاهر الجمال. والمقصود أنَّ الجلال والجمال هما مادة التسبيح ومحرك الموسيقى والإنشاد في طبائع الكائنات ووظائفها. فما أُسس ذلك كله؟ وما تجلياته؟

ثانياً: موسيقى الكائنات: الحفريات الفلسفية وتركيب المفهوم

١. الجذور المعرفية الفلسفية:

يرجع نسج الألحان وأداؤها في صناعة الموسيقى إلى مقولة الفعل والانفعال،[٢١] وهي من المقولات العشر الكلية عند نُظَّار العقل. فالنفس مجبولة على التغني والسماع بالطبع. وفي جوف الروح موضع لانفعال الكائن بالصوت والترنم. وقد حدَّد نُظَّار الموسيقى أنواع السماع والترنم في ثلاثةٍ: "أحدها الألحان المُلِذَّة، والثاني: الألحان الانفعالية، والثالث: الألحان المُخَيِّلَة."[٢٢] ثم ترتَّبت مقاصدها الغائية على هذا الترتيب؛ "فالمُلِذَّة منها تستعمل للراحات ولكمالها، والانفعالية تستعمل حيث يقصد بها حدوث الأفعال الكائنة عن انفعال أو حصول الأخلاق التابعة لانفعال ما، والمُخَيِّلات تستعمل حيث تستعمل الأقاويل الشعرية وأنحاء من الخطبية، ومنافعها تابعة لمنافع الأقاويل الشعرية."[٢٣]

والمُلاحَظ على هذا النص التصنيفي للفارابي أنَّ اللذات وغايات النفس من الموسيقى؛ إمَّا لذة نفس لا غاية لها بعيدة، وإنَّما هدفها تحصيل اللذة والاستجمام، وإمَّا لذة انفعال لإدراك مقصد علمي غائي أو التخلُّق بخلق رفيع، وإمَّا لذة انفعال لتفهُّم معنًى لفظي نظمي أو نثري.

وأكمل هذه المقاصد القسم الثاني منها؛ لارتباطه بالروح، والتزازه بغايات شريفة خلقية وإيمانية. فلذلك راح النورسي في تَمْسِيك به للخروج من الطبيعة العبثية واللهو الزائد

---

[٢١] باعتبار غايتها ومقصدها الطبيعي، وإلَّا فإنها تنتمي إلى مقولة الكَمِّ بوصفها صناعة؛ لأنَّها ترتبط حينئذٍ بعلم الرياضيات والحساب. ونظرة النورسي إليها بحسب الاعتبار الأول، لا بالاعتبار الثاني.

[٢٢] الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد. **الموسيقى الكبير**، تحقيق: غطاس عبد الملك خشبة، القاهرة: دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩٥م، ص٦٦.

[٢٣] المرجع السابق، ص٦٧.

للموسيقى والإنشاد، وتلميحاً منه إلى الصبغة الطبيعية الفطرية للأصوات والحركات والإيقاعات الكونية حيث تتناغم مع الشعور، وتتساوق مع المواجيد.

وعلى هذا، فإنَّ حركة الكائنات إنَّما هي تصويتات وترانيم ساذجة فطرية عَرَضَت للحيوان في فعله وصوته ولونه... وسائر أعراضه الطبيعية؛ بقصد إثارة شيء تعبدي في الإنسان، وليس فقط بقصد جلب لذة نفسية، أو طلب معونة على فهم كلام، أو التأثُّر بمضمونه.

إنَّ استعداد القلب لقراءة حركة الكائنات الفعلية والصوتية جعل النورسي موهبة متدفقة فاقت البُعْد الصناعي لفن الموسيقى وتجاوزته، تماماً كما كان شأنه حيث لم يكن دارياً بقواعد القريض وصناعة الشعر من حيث هي صناعة، لكنَّ تأوهاته المتدفقة من مشكاة اللطافة الذوقية في جوف الفطرة الساذجة الأمية للغلام منذ نعومة أظفاره؛ جعلته يقفز على الصناعة في ريعان شبابه، وينسج ألواحاً من المعاني المسبوكة ربَّما جعلته أَهْلاً ليكون أديباً من طراز فطري أصيل.[٢٤]

وهذه الأغراض والمقاصد الثلاثة هي التي دفعت الإنسان إلى إنشاء صناعة الموسيقى عموماً. ومع تبايُن هذه الأحوال والمقاصد يتباين حتماً مورد الحكم الشرعي فيها. يقول النورسي مُمَيِّزاً بين لذة مجردة ولذة غائية: "فبناءً على هذا السر أحلَّ الشرع بعض هذه الأصوات، وهو ما هيَّج عشقاً علوياً وحزناً عشقياً. وحرم بعضها، وهو ما أنتج اشتهاءً نفسياً وحزناً يُتْمِياً، وما لم يُرِكَ الشرع فميَّزه بتأثيره في روحك ووجدانك."[٢٥]

والدافع في الأصوات هو رقة الطبع وتفاعله مع حركة الكون، كأنَّها فارت من بوح الروح اضطراراً. ولعل هذا هو السبب الذي دفع "القدماء إلى استنباط اسم الموسيقى الكونية؛ لاعتقادهم بأنَّ النجوم والكواكب في السماء تغني."[٢٦] لأن هاته الكواكب والنجوم منجذبة بالشوق والإرادة، مطبوعة على الانفعال.

---

[٢٤] للاستزادة، انظر:

– الأمراني، حسن. **النورسي أديب الإنسانية**، القاهرة: دار النيل للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٣م.

[٢٥] النورسي، **إشارات الإعجاز**، مرجع سابق، ص٧٨.

[٢٦] كانينغهام، جولي آن. "موسيقى الكائنات"، **مجلة حراء**، القاهرة: دار النيل، عدد٢٣، ٢٠١١م، ص١٩.

ومتى سمَّيناها (موسيقى) كان كتسمية الزهد (تصوفاً) عند نُظَّار التصوف، وكتسمية التصويت بالقرآن (تلحيناً وتغنياً)، وكتسمية نظم المعاني الفطرية في قوالب لفظية (شعراً)... وفي مثل هذا يقال: "لا مشاحة في الاصطلاح"؛ لأنَّها معانٍ وجدت موضعها في النفس والروح، فلمَّا خرجت إلى الخارج راحت في أمسِّ الحاجة إلى اصطلاح يُفرِز حقيقتها، ويفصل طبيعتها، ويُقرِّبها إلى التداول. ومن ثَمَّ يمكن الحديث عن أول خطوة في تحقيق علميتها، ورصد مجال التجويز والمنع الشرعيين فيها، بناءً على تنوُّع مقاصدها وغاياتها.

ولقد كان للبُعْد الديني وذريعة تحصين قواعد الشريعة دورُهما في منع التسمية قديماً. والآن، بعدما زال هذا المحذور لانفصال العلوم وتصنيفها، فقد بات كثير من أهل الذوق والنظر يعرجون على دفائن جمالية في اللفظ والمعنى والوجود، هي ألصق بالجمال، وأدعى لنفث حقائق موسيقية في النفس، مثل: سيد قطب، ومصطفى صادق الرافعي، وعباس محمود العقاد، وعبد الله الطيب.

والنورسي لم يكن بدعاً منهم، وإنَّما كان همه هو توحيد الأنظار المختلفة في المصطلحات الصناعية للفن بِردِّها إلى معينها في كليات القرآن، وإضفاء طابع العقلانية المشتركة عليها، والتوفيق بين الصناعي المكتسب (الموسيقى، والترنم) والفطري في الطبع (التسبيح)؛ لأنَّهما متلازمان كما قرَّر النُظَّار بقولهم: "ما من شيء توصَّل أهل الصناعات بصناعتهم إلى تصويره إلَّا وله مثال في الخلقة التي استأثر الله تعالى باختراعها."[٢٧]

فمادة الموسيقى وموضوعها (النغم) طبيعيان، وصورتها الصناعية التي تُعنى برصد القواعد والمصطلحات رياضية مرتبطة بقواعد الحساب العارض لها.[٢٨] ولمَّا كانت الطبيعة هي مدار تحرك الكائنات وتجمُّعها كان اهتمام النورسي بها من هذه الجهة؛ أي من جهة كونها طبعاً في الخليقة. فيشبه أنْ يكون نزوعه هذا المنزع تحديداً إنَّما هو لرصد خيوط النور التي تربط الكائنات بخالقها وصانعها، وتشدها به قبل أنْ تُفرِّقها الصناعة العلمية،

[٢٧] الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. **إحياء علوم الدين**، بيروت: دار ابن حزم، ط١، ٢٠٠٥م، د.ت، ص٧٤٢.

[٢٨] ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله. **كتاب البرهان**، ضمن: **الشفا**، تحقيق: أبو العلاء عفيفي، القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٥٦م، ص١٦٤-١٦٥.

حيث تتفرق العلوم، وتُصنَّف مباحثها، وينكفئ كل علم فيها على ذاته، من دون أنْ يكون خادماً للوحدة الكونية والنسق التعبدي الذي تُلوِّح إليه إحدى أعظم الكليات التوحيدية المبثوثة في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء: ٤٤).

ولهذا تراه في رسائله كلها يُمَسِّكُ بهذه الكلية القرآنية المستوعبة لنفث أذواقه، والتنقيب عن أسرار القدرة الإلهية وصفاتها في صبغ الكون بألوان التسبيح والتهليل الفطريين، دونما حاجة إلى قواعد الفن النظرية. ومن هذا المسلك يمكن الوقوف على طبيعة المفهوم عنده، وما يقصد به.

٢. تركيب المفهوم:

مرتع نظرية موسيقى الكائنات ومادتها عند بديع الزمان هي منظومة الجمال بمشهديه المزدوجين: الحسي الحركي (الألوان، الضوء، الطبيعة، السينما، الصوت، اللغة، الرسم، النقش...)، والمعنوي (مبدأ تجلي الأسماء والصفات، وتشخيص الكلمات).

فمفهومها معقد ينطوي على أسرار ومقاصد ودلالات، هي دوائر علمية وجمالية متداخلة، تتقاطع في مشترك دلالي واحد هو معنى الموسيقى فيها، وإنْ كانت تتفرد في حقيقتها بخصائص تُمثِّل ماهيتها. وعلى هذا، فموسيقى الكائنات هي ترسانة الأصوات المادية والمعنوية التي تثيرها حركة الانفعال في الكائن إثر تلقيه الأوامر التكوينية الإلهية؛ قصْد إظهار وظائف النسق التعبدي المنوطة به.

وعند تفكيك هذا التعريف الكلي الذي نظمناه من منطوق النصوص النورية ومفهومها، نجده يحتضن عناصر ثلاثة متداخلة في تركيب المفهوم، بوصفه نظاماً معقداً يتداخل فيه الطبيعي مع الحسي، والشرعي مع الكوني. وهذه العناصر هي:

أ. حركة انفعال الكائن نتيجة تلقي الأمر التكويني (أو تجسيد الكلمات المكتوبة).

ب. مجموع الأصوات المادية والمعنوية.

ت. مقاصد تلك الأصوات ووظائفها (أو استجلاء مظاهر النسق التعبدي).

فالعنصران الأوليان يُجلِّيان طبيعة خلق الكائن، وماهيته، وما يعرض لها. والعنصر الثالث يوضح وظيفة خلق هذا الكائن، ومقاصد تكوينه. فمنهما معاً صدرت عناصر

الجمال الموسيقي. ويمكن استجلاء مظاهر العنصرين عن طريق التكشيف عن المعاني والأسرار لهذه الكليات الثلاث المُمثِّلة لحقيقة النظرية، وذلك كله فيما يأتي.

ثالثاً: التجليات الموسيقية في ماهية الكائنات ووظائفها

١. طبيعة الكائنات وماهيتها:

أ. حركة انفعال الكائن نتيجة تلقي الأمر التكويني:

يوجد في جوف الكائن وباطنه الشعوري نوىً معنوية هي آلات رصد الأمر الإلهي القاضي بالتكوين والإنشاء. يقول النورسي: "فالانجذاب والشوق والحاجة والميل، كلها نوىً لامتثال الأوامر التكوينية الربانية وبذورها من حيث ماهية الأشياء."[٢٩] والانجذاب، والشوق، والحاجة، والميل؛ كل ذلك دوافع طبيعية في الكائن عُجِنت في مادته؛ قصْداً للتجاوب مع الأمر والامتثال له، فنشأت –في ذوق المتدبر– أصوات وذبذبات تعبدية هي اهتزازات بتعبير النورسي، تُعَدُّ صورة حقيقية لامتثال الأمر، فتبدأ أطوار الخلقة فيها، وتتشكَّل ماهيتها. يقول في حركات الذرات: "إنَّ حركات الذرات إنَّما هي اهتزازات وحركات عبور الموجودات من جراء الكتابة الإلهية والاستنساخ من عالم الغيب إلى عالم الشهادة؛ أي من العلم إلى القدرة."[٣٠]

وهذه الاهتزازات هي منشأ التصويت في الأجسام عموماً.[٣١] غير أنَّ النورسي يُصوِّر وجود الكائن تصويراً محسوساً، ويجعل امتثاله حركاتٍ وإيقاعاتٍ ملموسةً يطرب لها في أثناء تلقيه الأمر كما يطرب السامع بسماعه الترانيم والمعزوفات.

والنورسي ما لبث يستمد من قواه الوجدانية وانبعاثه الإيماني قوانين أخرى، تسوق المخلوقات إلى القفز عن أجسامها المتباينة وأجرامها المتفاوتة، وإدراك سر الوحدة بينها، أو الدخول في نسق تعبدي ناظم، يلمُّ شعثها، ويُوجِّه الإنسانَ إلى إدراك حقيقتها الغيبية

[٢٩] النورسي، سعيد. **صيقل الإسلام**، ضمن: **كليات رسائل النور**، القاهرة: سوزلر للنشر، ط٤، ٢٠٠٥م، ص٣٤٣.
[٣٠] المرجع السابق، ص٤٥.
[٣١] مطلوب، أحمد. **بحوث بلاغية**، بغداد: د.ن، ط١، ١٩٩٦م، ص٣٤.

في الكلمات قبل أنْ تقدر في الكون أجساماً وهيئاتٍ وأشياءَ. يقول مُنبِّها على هذه القوانين في إشارات تفسيرية: "إنَّ نغمات (لا تقنطوا) وأصداءها تتجاوب من ست جهات: الضرورة، والانجذاب، والتمايل، والتجريب، والتجاوب، والتواتر. تتجمع تلك القطرات واللمعات في مصافحة وعناق، وتطوي ما بينها من المسافة، مُولِّدةً حوضاً من ماء يبعث على الحياة، وضياءً مُنوِّراً ينير العالم أجمع."[٣٢]

والحوض والضياء يخفيان تحتهما تجليات التوحيد، أو الأحدية بحسب تعبيره في رسائله. أمَّا لفظا العناق والمصافحة فيرمزان إلى مقصد الأخوة والوحدة، ونبذ الاختلاف بين الكائنات أولاً، وهذا مقصد تكويني وجودي، وبين نوع الإنسان ثانياً، وهو مقصد تكليفي تشريعي. فالكون مبني في طبيعته على الأخوة والوحدة بين كائناته، فكيف يخالف البشر مقتضياتهم الفطرية الكونية، وينزعون إلى الصدام والحروب بله تخريبهم منظومة تلك النعم والكائنات بتشييئها واستغلالها بكل خساسة ولؤم؟

إنَّ قلم القدرة الذي كتب الكلمات ودفع المشيئة لتشخيصها في الأرض يوجب أنْ تكون هذه "الأرض بكاملها سفينة مُسخَّرة ودابة مأمورة... سائرة سريعاً في فضاء الكون"[٣٣] تتلقى الأوامر بلهف وشوق وفرح. فلا جرم غرزت فيها هذه الدوافع –مثلما غرزت في كائناتها– بقصد الامتثال لذلك الأمر، وإظهار تجاوبها معه، بما تُنشِئه من معزوفات وأناشيد وإيقاعات، تماماً كما تتجاوب الذرة معه في اهتزازاتها وحركات عبورها من الكمون إلى التجلي مثلما سبق.

ب. مجموع الأصوات المادية والمعنوية:

يقصد بذلك أنَّ الصوت المُرتَّب على حركة انفعال الكائن إنَّما يكون ملموساً محسوساً يشترك في إدراكه الجميع، لكنَّه مُلفَّع بدثار التسبيح والذكر، وذلك مثل "ترنمات هبوب الريح، ونعرات رعد الغيم، ونغمات أمواج البحر، وصرخات دقدقة الحجر،

[٣٢] النورسي، **صيقل الإسلام**، مرجع سابق، ص٣٩٢.
[٣٣] النورسي، **المكتوبات**، مرجع سابق، ص٢٠.

وهَزَجَات نزول المطر، وسَجَعَات غناء الطير... كأنَّ الكائنات معزوفة موسيقية عظيمة."[٣٤]

فكل حركة ذاتية أو عرضية في الكون إنَّما هي تسبيح وتمجيد لبارئها، واعتراف ضمني في ماهيتها بخالقيته وقدرته وعلمه. فالأشجار والنباتات مثلاً "قد عقدت بأجناسها وأصنافها مجلساً فخماً للتهليل والتوحيد، وشكَّلت حلقة مهيبة للذكر والشكر من خلال ثلاث حقائق كبرى كلية...:

بالألسنة الفصيحة لأوراقها الموزونة.

وبالكلام الجزيل لأزهارها الجميلة.

وبالكلمات البليغة لأثمارها المنتظمة."[٣٥]

وهذه الدلالة المزدوجة للصوت في الكائنات، أقصد أصواتها المادية المدركة والمعنوية الرمزية الشعورية، لا تفترق منعزلةً عن بعضها بعضاً في منطق النورسي الإحساسي، وإنَّما في التصور الإسلامي عامةً؛ فالنظام الروحي في الكائن مساوق للنظام المادي. وأصوات الطبيعي وإيقاعاته في الخارج هي انعكاس لذات التسبيح والتمجيد في باطنه. فالماهية تتشكَّل من النظامين معاً، وتدفع الكائن إلى إنتاج وظائف ومقاصد تعبدية يُرى فيها اللونان معاً في لوحة نسقية متكاملة مندمجة، لا يجوز تفكيك محتوى اللونين فيها، وأيُّ محاولة لذلك تُعَدُّ اختزال الكائن في شيء جامد، أو جعله خيالاً وصورةً وهميةً.

وكذلك كان الصراع الرمزي في الماضي بين الاشتراكية المادية والروحية المسيحية، في الفن والفلسفة كما في الاقتصاد والاجتماع... بل غدا صراعاً بين نظامين نسقيين في أغلب التصورات الفلسفية: المادة في مقابل الروح.

والإسلام في هذا الخصوص يُوجِّه المنطق الإنساني إلى إدراك أنَّ الحقائق الشرعية والكونية إنَّما هي "كينونات لا تقبل التجزئة"[٣٦] في الجمال والفن والفلسفة كما في

[٣٤] النورسي، **إشارات الإعجاز**، مرجع سابق، ص٧٧.
[٣٥] النورسي، **الشعاعات**، مرجع سابق، ص١٥٢.

التعبدات والمعاملات والأخلاق. فالكل منضود في عقد النسق التعبدي. وهو الذي ربط مثلاً "بين الوضوء والصلاة في وحدة تسمى (الصلاة الإسلامية)،"[٣٧] وجعل المال مع المواساة هو نفس الزكاة في الإسلام... وهكذا في كل شيء؛ أجسام الكائنات ومنظومة الحلال المنوطة بها من أكل وشرب واستمتاع؛ هو الذي يحرك في باطن المُكلَّف وازعه المسمى الإيمان، فيُكوِّن حقيقة الإيمان الكبرى.

وكليات القرآن ما لبثت تُنبِّه لهذا التساوق بين النظامين في صورة نسقية تعبدية؛ فقوله تعالى في جمال الكائنات وطيباتها ونعمها: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (الأعراف: ٣٢) هو دافع غائي إلى أمر آخر هو زينة الإيمان وجماله في نفس تركيب الآية مثلما ترى: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (الأعراف: ٣٢)؛ أي خُلِقت للمؤمنين في الدنيا بالأصالة، ولغيرهم بالتبع. ثم تصير خالصة محضة للأولين في الآخرة بفضل الإيمان. وقد نبَّهت عليه آية أخرى في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: ٧)؛ إذ الإيمان وتحبيبه وتزيينه هو الكلي المقصود بالأصالة، وإنَّما الكون كله -بما في ذلك جملة النعم- مسوق لخدمة هذا المقصد الجليل، فنصبت للتناول قصْداً ابتلائياً كونياً مشتركاً، فصار تناولها والشكر عليها هو ذات حقيقة الإيمان في الإسلام. ولهذا حرَّم الشارع الزهد في أصلها، وإنْ جوَّزه في المداومة عليها. وهنا نسوق نكتها اللطيفة في فقه الشريعة عند نُظَّار المقاصد؛ إذ يقول الإمام الشاطبي: "تناول المباح لا يصح أن يكون صاحبه محاسباً عليه بإطلاق، وإنَّما يحاسب على التقصير في الشكر عليه، إمَّا في جهة تناوله واكتسابه، وإمَّا في جهة الاستعانة به على التكليفات. فمَن حاسب نفسه في ذلك وعمل على ما أمر به؛ فقد شكر نعم الله. وفي ذلك قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ (الأعراف:٣٢)."[٣٨]

---

[٣٦] بيجوفيتش، علي عزت. **الإسلام بين الشرق والغرب**، ترجمة: محمد عدس، بيروت: مؤسسة العلم الحديث، ط١، ١٩٧٤م، ص٣٤.

[٣٧] المرجع السابق، ص٣٣.

[٣٨] الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى. **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق: الشيخ عبد الله دراز، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠١م، ج١، ص٣٢.

فلا بُدَّ إذن من هذه النعم والآلاء الجمالية لتحقيق الشكر بما هو مقصد غائي. والشكر هنا هو شكر كوني بمعناه العام الذي يلزم كل إنسان من حيث هو إنسان، وليس شكراً خاصاً يؤديه المؤمن فقط. ولذلك قرنه بالتوحيد في نصٍ مشاكل، قائلاً: "والشكر هو صرف ما أنعم عليك في مرضاة المنعم، وهو راجع إلى الانصراف إليه بالكلية، ومعنى بالكلية أنْ يكون جارياً على مقتضى مرضاته بحسب الاستطاعة في كل حال، وهو معنى قوله ﷺ: حق الله على العباد أنْ يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً."[٣٩] إذ عدم الشرك هو التوحيد والإيمان.

والمقصود من الآية –المسوقة عند الشاطبي– أنَّ تناول النعم بوصفها أشياء مادية والشكر عليها هو مجموع الإيمان، وأنَّ وحدة جمالهما الخارجي والنفسي معاً تُمثِّل حقيقة الجمال في الإسلام.

على وِزان هذا القانون المقاصدي الكوني الرفيع تتنزَّل كل حركة في الكون، تُولِّد صوتاً ونغماً هو قبس من منظومة الجمال عموماً. فالأصوات المسموعة المادية كلها تسابيح في ماهية الكائنات لا مجال للفصل، "فدونك إنْ شئت الاستماع إلى ما لا يحد من كلمات التسبيح والأذكار في الكون،"[٤٠] مثل "لسان الأزهار المبتسمة بنشوة اللطف... صوت أهازيج الأمطار المنسكبة منها، وجلجلة رعود السماء..."[٤١] "ترنمات الرياح، ورعدات الرعود، ونغمات الأمواج؛ تسبيحات سامية... وهزجات الأطيار... تهاليل رحمة وعناية..."[٤٢] "الطيور تنطق؛ تبث أناشيدها بمناقيرها الدقيقة حتى تُحوِّل الكائنات كلها إلى موسيقى رفيعة."[٤٣]

غير أنَّه يوجد جسم وروح، ولكلٍّ حقيقته منفرداً، ويبقى للإسلام لمسته الإعجازية في التوفيق بينهما. وهذا هو السر العجيب فيه دون سائر الملل والنحل.

---

[٣٩] المرجع السابق، ج٢، ص٢٤٤.
[٤٠] النورسي، **الكلمات**، مرجع سابق، ص٨٠٣.
[٤١] المرجع السابق، ص٨٠٤.
[٤٢] المرجع السابق، ص٨٩٣.
[٤٣] المرجع السابق، ص٨٩٤.

وعلى هذا، فإنَّ سر إفلاس نظرة الفلسفة الغربية –مثل سليلتها اليونانية– إلى الكون، هو تشييء الكائنات، وتفضيل أقواها وأضخمها في إشباع الغريزة على أصغرها وأضعفها، تماماً كالتفضيل بين شيء وشيء في الطبيعة؛ لأنَّ هذه "الطبيعة تتصور (القوانين المعنوية) التي تُشاهَد آثارها في ربط أنظمة الكون البديع... كأنَّها قوانين مادية وأشياء جامدة."[٤٤] في حين أنَّ روح التصور الإسلامي يرى في الكون اهتماماً متساوياً بمخلوقاته وتكوينها على وِزان ذلك التساوي في الاهتمام. والدليل على ذلك خمسة قوانين تُمثِّل الروابط المعنوية بين هذه الكائنات وصبغها بصبغة النسق التعبدي الذي تخضع له الأجسام الكبيرة مثلما تخضع له الذرات والأشياء المتناهية في الصغر. يقول مُبيِّناً هذه القوانين: "لا مراتب في تلك القدرة، فتتساوى بالنسبة إليها الذرات والنجوم والقليل والكثير... بسر النورانية والشفافية والمقابلة والموازنة والانتظام."[٤٥]

إنَّ ماهية كل كائن –عند النورسي– إنَّما تحمل بالقوة هذه القوانين، وحيث وُجِدت فعلاً توجد معها تجاوباً مع سائر شقيقاتها، وإيذاناً بإنشاء حركة تعبدية واحدة في الكون، هي التي بثت في مواجيد النورسي الشفيفة موقعاً لترجيع صداها التعبدي، فكان "الكون كله موسيقى متناغمة الألحان لذكر عظيم. فامتزاج أصغر نغمة وأوطئها مع أعظم نغمة وأعلاها؛ ينتج لحناً لطيفاً مهيباً."[٤٦]

فلا عجب أنْ يشار إلى الذرّة، وإنْ كانت مخلوقاً متناهياً في الصغر، غير أنَّ لها شرف تحريك المخلوقات بأمر إلهي، فتغدو كطرف إبرة مركزية في نسج الأسطوانات (المخلوقات) وحياكتها، دافعةً إياها إلى الخضوع لخالقها عن طريق قابليتها لفعل تلك الإبرة فيها، حتى لو أبصرها أعظم كوكب عند الفلاسفة لدهش وانكمش. يقول في ذلك: "كل ذرة تُبيِّن نفسها في صورة طرف إبرة لأذْرُعٍ معنوية –لا حدَّ لها– لحاكٍ رباني، تدور الإبرة على أسطوانات –وهي المصنوعات الربانية– فتُنْطِقُها بقصائدَ ثناءٍ ورحمة، وتنشدها أناشيد وتسبيحات إلهية."[٤٧]

---

[٤٤] النورسي، **اللمعات**، مرجع سابق، ص٢٨٢.
[٤٥] المرجع السابق، ص٤٨٤.
[٤٦] النورسي، **الكلمات**، مرجع سابق، ص٣٧٨.
[٤٧] المرجع السابق، ص٦٦٥.

فالتسبيح والإنشاد قانونان رمزيان في وجدان النورسي يهفو إليهما دائماً؛ لتصوير حقيقة الامتثال التعبدي في الكائنات، ورصد مشاهد التصوير الفني القائم على الصوت والحركة والإيقاع وغير ذلك.

إنَّ تصوير ماهية الذرّة على أنَّها طرف إبرة تمخر عُباب المنسوجات والمصنوعات، وما يستلزم ذلك من قابلية وانسجام وامتثال من هذه المصنوعات؛ إنَّما يرسم في مخيلتنا لوحة جمالية متباينة الألوان، متناسقة الطُّرُز، تُرى بالبصر، وتستمتع بها البصيرة. غير أنَّ هذا كله في منطق القرآن الكريم وكلمات الله التكوينية إنَّما هو تسبيح وتحميد وتبجيل. فبهذا تصف كليات القرآن المخلوقات في طبائعها، وفي وظائفها أيضاً كما سيأتي. ولمَّا كان النورسي فتًى قرآنياً لا يبارى فقد كان تشبثه بطبيعة المصطلحات والمسميات هنا بما هي نسخة أصيلة من طبيعة هذه المفاهيم والمسميات نفسها في الكليات القرآنية.

ومن هنا، كان لجوؤه إلى لفظ التسبيح ليسلس له لفظه المرادف في الصناعة، وهو الموسيقى والإنشاد، فيصيرا أشبه بالمتنازعين على المعمول الواحد؛ من الناس مَن يُرجِّح هذا لقربه من المعمول، ومنهم مَن يُرجِّح الآخر لسبقه في التركيب. وكذلك هنا؛ إذ لفظ (التسبيح) مفهوم قرآني يجمع الصوت الحسن مع التعبد، فهو أسبق إلى الفطرة، وأعظم في التصوير، في حين أنَّ لفظ الموسيقى لا يرتقي إلى هذه الدلالة الازدواجية، غير أنَّه لفظ تقعيدي صناعي، فكان أدل على الصناعة من الأول الدال على الفطرة.

٢. وظائف الكائنات ومقاصدها الوجودية:

يضع النورسي الكون في صورة منصة، ويرصد فيها الأحداث والوقائع التي تُمثِّلها الكائنات في صورة مشاهد متجددة، إذا أُسدل ستار الفناء على واحد منها كشف ستار الوجود على تالٍ له يبدأ من حيث ينتهي الأول. فالله يفني مجموعة من المخلوقات، لكنَّه "يرسل أمثالهم، فينسجون على منوالهم، فيسبحون مولاهم، يبتدئون في أعمالهم من حيث انتهت أعمال أسلافهم."[٤٨] وذلك في سيولة وسيرورة دائمة ما هي إلا مرايا

[٤٨] النورسي، سعيد. **المثنوي العربي**، ضمن: **كليات رسائل النور**، القاهرة: سوزلر للنشر، ط٤، ٢٠٠٥م، ص٤٥٠.

ومظاهر متبدلة للأسماء، والصفات، والأفعال الإلهية، وتجلياتها الوجودية[٤٩]. يقول كاشفاً عن هذه الحقيقة: "وهذه الموجودات الجليلة مظاهر سيالة، ومرايا جوَّالة، لتجدد تجليات أنوار إيجاده سبحانه بتبدل التعيُّنات الاعتبارية:

أولاً: مع استحفاظ المعاني الجميلة والهويات المثالية.

وثانياً: مع إنتاج الحقائق الغيبية والنسوج اللوحية.

وثالثاً: مع نشر الثمرات الأخروية والمناظر السرمدية.

ورابعاً: مع إعلان التسبيحات الربانية، وإظهار المقتضيات الأسمائية.

وخامساً: لظهور الشؤونات السبحانية والمشاهد العلمية."[٥٠]

هذه هي وظائف الكائنات ومقاصدها التكوينية في الوجود، لا يخرج عن إطارها أيُّ كائن كما صرَّح في قوله: "كل كائن حي له غايات وحكم مختلفة في هذه الطبقات الخمس."[٥١] فما حقيقة هذه الوظائف؟

أ. أسرار الوظائف في مآلات الوجود والعدم:

تُقِرُّ هذه الوظائف والمقاصد الكلية الوجودية بأن حركة الكون كلها دائرة بين الوجود والعدم المضاعفين: وجود دنيوي وأخروي، وفناء دنيوي وأخروي. بناءً على ذلك، ونظراً إلى ترادُف معاني هذه الوظائف وتقارُب مقاصدها؛ يمكن اختزالها في ثلاث كليات تُمثِّل حقيقة فلسفة الوجود والعدم في التصور الإسلامي:

الكلية الأولى: ترسيخ معاني الأشياء في قوة (الحافظة) البشرية بعد فنائها وكتابتها في عالم المثال.

الكلية الثانية: الدلالة على وجود عالم المثال وثمراته الأخروية، أو فلسفة الجزاء الإلهي.

---

[٤٩] النورسي، **المكتوبات**، مرجع سابق، ص٣٧٥.

[٥٠] المرجع السابق، ص٣٧٨.

[٥١] المرجع السابق، ص٣٧٨.

الكلية الثالثة: إظهار تجليات الجلال والجمال المُتجدِّدة بتجدُّد أسمائها وصفاتها الحاملة لها.

تقتضي الكلية الأولى وجود قوى إدراكية في الإنسان خلقها الله فيه، وركَّبها في ماهيته لالتقاط المعاني والأحاسيس والصور، من تعاقب الأجسام وأعراضها في الكون. وهذه القوى الباطنية كما هي عند العلماء: القوة الباصرة التي تبصر الموجودات، والقوة الخيالية التي تبقي على صور تلك الموجودات بعد رؤيتها، فهي تدرك الصور، ثم القوة الخيالية المدركة للمعاني، ثم القوة المفكرة، وهي التي تُركِّب المعاني على الصور وتحفظها.[٥٢]

وهذه الأخيرة أفضلها وأعظمها؛ لأنَّها تُرتِّب الحكم على الوصف المستفاد من الصورة، وتُقرِّره، وتحفظه، فتسمى حافظة. ولهذا لجأ إليها النورسي، وجعلها موازية في وظيفتها للوح المحفوظ، قائلاً: "القوى الحافظة (الذاكرة) التي هي نماذج الألواح المحفوظة."[٥٣] فهذه الحافظة (أو الذاكرة) خُلِقت في الإنسان لالتقاط ما لا ينتهي من المعلومات والمعاني والدلالات التي تبثها الكائنات في الكون، ثم يستثمرها الإنسان لخدمة مصالحه، وتشييد صرح عمرانه وَفق العلاقات التي تربط بين هذه الكائنات والقوانين المنظمة لها.

أمَّا الكلية الثانية فتدل على أنَّ الكائنات جميلها وقبيحها، خيرها وشرها، إنَّما هي ابتلاءات وجودية تذيق الإنسان طعم الحلاوة والمرارة الدال بالقوة على وجود الجنة والنار في الآخرة. فهي علامات عليها، و"معمل ينتج المحاصيل التي تناسب سوق الآخرة."[٥٤] فالكائنات توجد لتأدية وظيفة البيان المقاصدي الوجودي للإنسان، فتُظهِر له جزءاً مادياً فانياً مسلولاً مما هو موجود باقٍ في الآخرة؛ ترغيباً له في خيرها، وترهيباً من شرها المُطلَقينِ الممتدينِ السرمديينِ. فهي إذن علامات على المناظر السرمدية الغيبية التي يجب تجديد متعة الإيمان بها، والتشوُّق إليها. ويتجدد في المُشَاهِد أيضاً لذة تعاقب مناظر

---

[٥٢] الغزالي، أبو حامد. **تهافت الفلاسفة**، قدَّم له وضبط نصه: أحمد شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٠م، ص١٧٥-١٧٦.

[٥٣] النورسي، **المكتوبات**، مرجع سابق، ص٣٧٩.

[٥٤] المرجع السابق، ص٣٨٠.

السينما ومشاهدها. وهو تصوير لطالما هُرِع إليه النورسي للتنسيق بين ما هو غيبي وتقريبه للذوق وما هو مادي محسوس. و"الحاصل: أنَّه لو أُمْعِن النظر في الكائنات؛ صُودف فيها عنصران أساسان وعرقان ممتدان، إذا تحصَّلا وتأبَّدا صارا جنةً وجهنمَ."[٥٥] وبهذا، يريد النورسي إضفاء صبغة العقلانية على وجود الجنة والنار في الآخرة بصورة منطقية تُقرِّب حقيقتهما إلى المخالف في العقيدة. ومن هنا كانت حتميةُ الموت؛ لأنَّ "بالموت تتمخض الخِلقة، وتتميز الكائنات، فتمتاز جهنم بعشيرتها ومادتها، وتتجلى الجنة جامعةً لطائفتها، مُسْتَمَدَّةً من عناصرها."[٥٦]

وأمَّا الكلية الثالثة فحقيقتها المضمرة وجوب الإيمان بصفات الله تعالى المتنوعة في التجليات المتحدة في الذات. والنورسي بحنكته جعل هذا المشهد هو القاسم المشترك بين الإنسانية جمعاء؛ لأنَّ تبدُّل الكائنات وتغيُّرها وتجدُّدها وخَلَفُ بعضها من بعض وإمداد بعضها بعضاً إنَّما هو منظر مُشاهَد محسوس طافٍ على ساحة الأرض، لا ينكره ذو عقل، ولا يرتاب فيه صاحب فكر. وهل هذا كله إلا تجليات لتلك الأسماء والصفات؛ إذ "مثلاً: يقتضي اسم الرحيم الإشفاق، ويقتضي اسم الرزاق إعطاء الرزق، ويستلزم اسم اللطيف التلطيف... وهكذا؛ فكل اسم من الأسماء الإلهية له مقتضى. وكل ذي حياة يُبيِّن مقتضى تلك الأسماء، بحياته ووجوده، وهو في الوقت نفسه يُسبِّح لله الحكيم بعدد أجهزته."[٥٧]

إذن، بمقتضى هذا التلازم بين الأسماء وتجلياتها، وبمقتضى القانون المشترك بين النوع الإنساني في الإدراك؛ يلزم الإقرار بعظمة الربوبية والألوهية المتصفة بهذه الصفات الجلالية والجمالية التي لا يخرج عنها بار ولا فاجر؛ ما يدفع الجاحد بالشريعة إلى عدم الجحود بالحكمة، فهما متلازمتان، ومسلك تلازمهما الأسماء وتجلياتها في الخلق.

لهذا كان حقاً الإلحاد في هذه الأسماء والصفات هو أصل الكفر ومادته عند المحققين؛[٥٨] لأنَّ الكافر، وإنْ وجد عقلاً لرفض عبادة تشريعية بدعوى ما، فلا يمكنه

[٥٥] النورسي، **إشارات الإعجاز**، مرجع سابق، ص١٩٢.
[٥٦] المرجع السابق، ص١٩٣.
[٥٧] المرجع السابق، ص٣٨١.
[٥٨] ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م، ج١٨، ص٣٢١.

نكران عبادة المخلوقات المتزاحمة لخدمته من حيث هو إنسان، فيصير أخسَّ مخلوق لإجهازه على تلك الأجهزة المعنوية التي تربطه بالكائنات؛ من: قلب، وعقل، وفكر، وحافظة، وشعور... بعدما جُعِلت له الأفضلية الإلهية بها؛ استخلافاً، واستعماراً. وتلك نتيجة النورسي المفحمة للإنسان عامةً بعد كل هذه المقدمات والتمهيدات المنطقية الفطرية؛ إذ يقول: "لمَّا كان الإنسان خلاصة جامعة لهذا الكون، فإنَّ قلبه بمثابة خريطة معنوية لآلاف العوالم؛ إذ كما أنَّ دماغ الإنسان -الشبيه بمجمع مركزي للبث والاستقبال السلكي واللاسلكي- هو بمثابة مركز معنوي لهذا الكون، يستقبل ما في الكون من علوم وفنون، ويكشف عنها ويبثها؛ فإنَّ قلب الإنسان كذلك هو محور لما في الكون من حقائق لا تُحَدُّ، ومظهر لها، بل هو نواتها."[٥٩]

فهذه الكليات الثلاث متلازمة في أداء الوظائف والغايات والحِكَم. غير أنَّ محركها الذي يُسلِّط الشعاع على هذه الوظائف فيها هو الوجود والعدم؛ وذلك أنَّ وجودها الدنيوي مؤقت يدل إمَّا بالمطابقة والدلالة الظاهرة على وجود آخر مقابل للأول معنوي سرمدي، بما تبثه في حافظة الإنسان من أسرار ومعانٍ أبدية تصحبه في الآخرة بعد موته، ويجازى بها وعليها هناك. وإمَّا باللزوم الضمني على أنَّ الإنسان يكابد إمَّا فراقات أبدية إذا تخندق في زاوية الجحود والإلحاد والكفر، وإمَّا فراقات مؤقتة تستحيل بعد موته وجوداً سرمدياً مُفعَماً باللذة والنعيم المُطلَقينِ. ويرى في ذلك الفراق المؤقت تسريحاً من الوظيفة الاستخلافية التي استُعمِر في الأرض من أجلها، فيغدو مع تلك الكائنات على نسق تعبدي واحد، وأخوة كونية شاملة. فالأمر كله دائر بين معاني الوجود والعدم.

وما نصبت الكائنات إلا لتعرفه بالمسلكين معاً، وتدله على النوعين كليهما، لكنَّه يَفْضُل عليها باختياره وإرادته، وتلك حقيقة استخلافه وعمارته في الأرض، ومناط سيادته عليها. وقد خُصَّ بديع الزمان حقيقة الفناء والوجود في شعور المؤمن والكافر معاً. أمَّا المؤمن "فيرى أنَّ المملكة كلها تُعلِن -في حفل التسريح العام- هتافات الفرح بصيحة مصحوبة بكلمات الشكر والثناء. ويسمع فيهم أيضاً أصوات

[٥٩] النورسي، **المكتوبات**، مرجع سابق، ص٥٧١.

الجوقة الموسيقية وهي تُقدِّم ألحانها الحماسية مقترنةً بالتكبيرات العالية، والتهليلات الحارة بسعادة واعتزاز للذين يساقون إلى الخدمة والجندية."[٦٠] وأمَّا الكافر "فيرى في الكائنات مأتماً عمومياً، ويرى موجوداتها كالأجانب الغرباء والأعداء، لا يعرف بعضٌ بعضاً، بل يعاديه، وترى جامداتها جنائز دهَّاشة، وترى حيواناتها وأناسيَّها أيتاماً باكين بضربات الزوال والفراق."[٦١] وإذا "أظلم سمع هذا الكافر بالكفر؛ صار أصم من تلك الأصوات اللذيذة، ولا يسمع من الكائنات إلا نِياحات المأتم، ونعْيات الموت، فلا يَلقى في القلب إلَّا غمَّ اليُتْمة -أي عدم الأحباب- ووحشة الغربة."[٦٢]

تلك هي قصة الفناء والوجود للكائنات والإنسان جميعاً، وهي النتيجة الحتمية الموضوعة نُصْب عقل كل إنسان ليتملَّى مشاهدها في الكون، عساه يؤوب إلى رشده من حيث هو إنسان مخلوق مقهور تحت سلطة مُبدِّل الكائنات ومُجدِّدها، فلا جرم كان هدف النورسي هو احتضان الإنسان الغربي بعقلنته قوانين التكليف التعبدي، وبيان جذورها المنطقية الفطرية، وإنْ كانت تفاصيلها غيبية.

ب. دلالة القرآن عليها:

يُضمِر سياق هذه الكليات المقاصدية والوظائف التكوينية عند النورسي سؤالاً يُنقِّب عن حُجيتها في القرآن الكريم بوصفه كشَّاف الحقائق، وفهرس الموجودات جميعها. ولهذا، يمكن للمعتبر أنْ يسأل: ما منزلة هذه الوظائف والمقاصد في كليات القرآن الكريم؟

لا يألو النورسي جهداً في التنسيق المنهجي بين حقيقة القرآن الكلية ومنزلة المخلوقات في فهرسه؛ فهو عنده "الترجمةُ الأزلية لهذه الكائنات، والترجمانُ الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومُفسِّرُ كتاب العالَم، وكذا هو كشَّافٌ لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السموات والأرض."[٦٣]

---

[٦٠] النورسي، **الكلمات**، مرجع سابق، ص١٠.
[٦١] المرجع السابق، ص٢٥٦.
[٦٢] النورسي، **إشارات الإعجاز**، مرجع سابق، ص٧٨.
[٦٣] المرجع السابق، ص٢٢.

وهذا التعريف نفسه هو كليات منضودة في نسق وظيفي يتجاوب مع وظائف تلك الكائنات، ويُبرِز طبيعتها جلياً. وهذه الكليات مُستلَّة من تعريفه:

– كلية التعريف بالكائنات في امتدادها قبل خلقها (الأزل)، وبعد خلقها (الأبد)؛ أي كونها كلماتٍ، ثم حقائقَ وأجساماً.

– كلية التسبيح والتعبد بألسنتها التالية للآيات التكوينية؛ أي للأوامر الإلهية القاضية بتكوينها والامتثال لها.

– كلية الكشف عن معاني الأسماء والصفات وتجلياتها.

وأنتَ ترى أنَّ هذه الكليات متساوقة مع تلك الوظائف والطبائع عموماً. والنورسي بهذا التعريف إنَّما كان يروم نَظْم معاني النصوص القرآنية ودلالاتها ومقاصدها التكوينية الابتلائية والتشريعية معاً، مما يُرى مُتناثِراً بين قصص القرآن وأحكامه وقضاياه عموماً؛ لأنَّ سرَّ القرآن في عرضه مناظر ومشاهد الكائنات بتدميرها، وتبديلها، وإيجادها، وإفنائها، وما يلزم عنها من حركات وأصوات وإيقاعات؛ لكل ذلك عنده قوانين كما سبق "مُؤسَّسة على سرِّ المناسبات بين الأشياء، والانعكاسات في نظام الكائنات."[٦٤] وهذه القوانين هي المقصود أصالةً من تلك المناظر والمشاهد التي تعرض لها، وتُعَدُّ روابط بين كونها كلماتٍ وتجلياتٍ للأسماء وأقداراً وأقضيةً، وأشياءَ وأجساماً وأجراماً. هذا في الطبيعة، أمَّا الوظيفة فالدلالة على المقاصد الإلهية العلا في الكون؛ من: توحيد، وعدالة، وحشر، ونشر، وما يخص فلسفة الجزاء من ثواب وعقاب.[٦٥] فهي دائرة بين مقاصد طبيعية لخدمة نفس الإنسان، ومقاصد تشريعية لجسِّ نبض الروح فيه.

ولهذا، نجد القرآن الكريم يعرض حقيقة الماء مثلاً، وما يُنبِته من كائنات ومخلوقات بإذن الله، ويصف الأرض والسماء بعرض مشاهد تبدو متعاكسة أحياناً، فتغدو لوحة تتشابك فيها المشاعر ترغيباً وترهيباً، وتختلط فيها حركات النجوم والكواكب، وتغيب الشمس في عتمة الليل، ويخلع الربيع أرديته الجميلة ثم يُكفِّنها الشتاء بعباءته الدكناء،

[٦٤] المرجع السابق، ص١٢٠.

[٦٥] المرجع السابق، ص١٧٧.

وتقضي الكائنات نحبها، وتستمر الحياة بولادة كائنات جديدة، وتستمر الطبيعة تترنح بين هيئات وكيفيات وصور وأعراض.

هذه كلها وغيرها مشاهد يعرضها القرآن الكريم للتدبر، والتعريف بالخالق، وبيان تجليات كلماته التكوينية القاضية بتربية الأنواع والأجناس، بقوانين تبدو متعارضة ومتناقضة في المنطق البشري النسبي، بحيث يتداخل فيها الخير بالشر، وتتمازج فيها المصلحة مع المفسدة، لكنَّها ليست سوى تجليات الجلال القاهر والجمال الباهر، وتلبُّس أحدهما بالآخر. والمقصود من هذا العرض استثارة قلب الإنسان طبعاً. يقول رحمه الله: "والقلب كالنواة فهو المرآة الأنور لصانع المخلوقات (...) فالإنسان الأصغر في هذه الكائنات هو المدار الأظهر للنشر والمحشر في هذه الموجودات، والتخريب والتبديل والتحويل والتجديد لهذه الكائنات."[٦٦]

إذن، مشاهد القرآن في الكون مناظر وأصوات جميلة مُسيَّجة بالجلال، تستثير في قلب الإنسان التسبيح كما تستثيره في سائر المخلوقات. ومن هنا، يمكن وصف آياته بما يشبه الترنم والعزف والموسيقى في نظر النورسي؛ إذ يقول: "إنَّ الله ينادي بقرآنه الكريم الذي هو موسيقاه الإلهية، مالئاً الكون كله صوتاً صدَّاحاً هادراً في قبة السماء، فانعطفت النغمات المقدسة لذلك النداء السامي مُتموِّجةً نحو أصدافِ رؤوسِ العلماء (...)، وانعكست أصديتها من ألسنتهم سيَّالة، سيَّارة، منوَّعة، مختلفة، هزَّت الدنيا بشدة موجاتها، فطَبعتْ بتجسُّمها كتبَ الإسلام كلها، وصيَّرتها كأنَّها وترٌ من طُنْبُور، وشريط من آلة قانون، فأعلن كلُّ وترٍ نوعاً من ذلك الصدى السماوي الروحاني."[٦٧]

العلماء والمجتهدون في ذوق النورسي ليست عقولهم وقلوبهم سوى أجهزة رصد ميكروسكوبية لترسانة الجمال الموسيقي التي تبثه الآيات والسور في الكون، فتلتقط ما دَقَّ وخفي من الحكم والأسرار. وعلى قدر تجاوب القلب معها يتولَّد الإبداع ويتطور في جميع الفنون والعلوم، عاكساً حقيقة التعبد والخضوع والامتثال.

---

[٦٦] النورسي، **المثنوي**، مرجع سابق، ص١٤٦.

[٦٧] النورسي، **صيقل الإسلام**، مرجع سابق، ص٣٨٨.

وعلى هذا، وجب أنْ تكون موسيقى القرآن سرمدية ممتدة بأصواتها الجميلة التي تعكسها حركات الكائنات وأصواتها في الكون، حتى لو سكتت هاته الأصوات لم تسكت هي، وإنَّما تتدفَّق هادرة كما تَدَفَّقُ كلماتها في العلم الإلهي غير متوقفة ولا ساكنة. قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ (الكهف: ١٠٩). يقول في ذلك: "لو سكن طنينُ البعوض، وهدأ دويُّ النحل فلا تأسوا، ولا تحزنوا، ولا تخمد أشواقكم أبداً. فالموسيقى الإلهية العظيمة التي تجعل بنغماتها الكون في رقصٍ وانتشاءٍ، وتهز بأشجانها أسرار الحقائق؛ لم تسكن أبداً، ولم تهدأ، بل تستمر قوية عالية هادرة."[٦٨]

هكذا صار يحكي القرآن الكريم في كثير من قصصه، فيعرضها لوحات فنية تُمثِّل نسق التعبد المشترك بين الإنسان والكائنات حين تنجلي حُجب الشهوات، وينتشل الإنسان نفسه من انغماسها المفرط في الاهتمامات الشخصية.

ففي مشهد الجبال والطير مثلاً، وتأويبها مع داود ﷺ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ (سبأ: ١٠). يقول سيد قطب: "والآية تصور من فضل الله على داود ﷺ أنَّه قد بلغ من الشفافية والتجرد في تسابيحه أنِ انزاحت الحُجب بينه وبين الكائنات، فاتصلت حقيقتها بحقيقته، في تسبيحِ بارئها وبارئه، ورجَّعت معه الجبال والطير؛ إذ لم يعد بين وجوده ووجودها فاصل ولا حاجز، حين اتصلت كلها بالله صلة واحدة مباشرة تنزاح معها الفوارق بين نوع من خلق الله ونوع، وبين كائن من خلق الله وكائن، وترتد كلها إلى حقيقتها الواحدة."[٦٩]

على شاكلة هذا التصوير الفني وُضِع نسق التسبيح والذكر في الكائنات في سائر قصص القرآن المشابهة، لا نطيل بذكرها لضيق الموضع. والمقصود أنَّ القرآن حافل بالمشاهد المتلونة والمتباينة في الطبيعة والإنسان، التي ترسو سفينتها في نهاية المطاف على ضفة النسق التعبدي، القاضي بالتسبيح والذكر والشكر للصانع، وبيان مقاصد الإنسان الوجودية؛ من: موت، وحشر، ونشر، وجنة، ونار.

[٦٨] النورسي، **المثنوي**، مرجع سابق، ص١٦٢.

[٦٩] قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، القاهرة: دار الشروق، ط١٧، ١٤١٢هـ، ج٥، ص٢٨٩٦.

رابعاً: المتقابلات مسرح الجمال التعبدي المُفعَم بالتسبيح

الكون هذا الفضاء الشاسع الواسع الممتد إنَّما هو مسرح ترعى فيه المتقابلات المتضادة والمتقابلة بكل ألوانها وأطيافها، وتتعرَّض حقائقها إلى مشاهد متتابعة وتقلبات متتالية، ولكن في أستار من حُجب الحكمة والأسرار؛ وذلك "أنَّ الخالق جلَّت قدرته مزج الأضداد في عالم الكون والفساد لحِكَم دقيقة، ووضع أسباباً ظاهريةً ووسائطَ؛ إظهاراً لعزته، فترتَّبت سلسلة العلل والمعلولات."[٧٠] وذلك كله مبني على قوانين السبب والمُسبِّب لاستمرار المقاصد الطبيعية في الخلق؛ من: تغذية، وإنماء، وصحة، ومرض، ونشوء، وفناء... خضوعاً للأسطقسات (الأصول بلغة اليونان) المادية الأربعة، وهي: الماء والنار والهواء والتراب[٧١]، وما يترتب عليها من كيفيات وهيئات، وهي: الرطوبة، والحرارة، والبرودة، واليبوسة. وتلك حقيقة الكون والفساد، فهي ظاهرة مادية طبيعية محضة، غير أنَّ تدبير الإرادة الإلهية تأبى الخضوع إلا لأسطقسات معنوية أخرى مرتبطة بالقدرة التي أوجدت أصل الكون بغير هذه الوسائط، وهي: "الحكمة، والعدالة، والعناية، والرحمة، التي هي عناصر قوية شاملة كالنار، والهواء والماء والتراب."[٧٢] يقول في ذلك: "فالوجود في الدنيا يصدر من يد القدرة بلا واسطة، وأمَّا البقاء المحفوف بالتحليل والتركيب والتصرف والتحوُّل في عالم الكون والفساد؛ فتتداخل بينه العلل، وتتوسَّط الأسباب، للحكمة المذكورة سابقاً."[٧٣]

في خضم هذا التقابل تتفتَّق لوامع الإعجاز في حركة الكون؛ إذ كثيراً ما تقف الأسباب الطبيعية عاجزة عن التأثير، فيُفوَّض أمر النتيجة إلى تلك القوانين الغيبية الأربعة. ومنها ينشأ التفويض والتوحيد الكوني، وتنطلق أهازيج التسبيح والتمجيد. ولولا ظهور هذه القوانين في صورة معجزات ظاهرة أو خفية لبقي الإنسان محشور الأنف في أوساخ

---

[٧٠] النورسي، **إشارات الإعجاز**، مرجع سابق، ص٢١٩.

[٧١] ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد. **تلخيص ما بعد الطبيعة**، تحقيق: عثمان أمين، القاهرة: دار مصطفى بابي الحلبي، ط١، ١٩٩٨م، ص٣٢.

[٧٢] النورسي، **الكلمات**، مرجع سابق، ص٩١.

[٧٣] النورسي، **إشارات الإعجاز**، مرجع سابق، ص٢٢١.

الطبيعة المادية، التي لم تُخلَق قوانينها المادية إلَّا لخدمة نظام محدود معين في النوع، هو الشهوة والغريزة. وكذلك صار الإنسان المعاصر محشور الأنف فيها للأسف.

ومن هنا، فإنَّ البقاء والفناء في الكائنات قد يُلاحَظ فيه نوعُ ألمٍ، وترتُّبُ نعْياتٍ وصيحاتٍ وتأوُّهاتٍ، غير أنَّه ألم مُدثَّر بشفقة الرحمة من جهة، وبيان كوني ممزوج بتحذيرات وإنذارات للإنسان المُكلَّف (المقصود الأول) من جهة أخرى. يقول: "فلا تتألَّم لهم حتى يكون التألُّم شفقة ممدوحة، بل تألَّم لنفسك المفروضة في موقعهم، الفانية بطريق القياس فيهم."[٧٤]

من ثم، فقد سيقت أعمال كثير من الطيور والحشرات وغيرها، لرصد وظائف الكائنات، وإظهار الانسجام بينها. "فمثلاً؛ العندليب المشهور بالعشق للورد... ليست نغماته الحزينة تألُّمات شكايات حيوانية، كلَّا بل هي تَشَكُّرات عطايا رحمانية. وقِس عليه النحل، والفحل، والعنكبوت، والنمل، وبلابل الهوام، وغيرها."[٧٥]

صوت العندليب ونحيبه يوحي بمعاناته وتألُّمه مثل صوت عواصف الرياح وجلجلة رعود السماء وغيرها... كلها توحي بالخوف والألم، لكنّها -في الوقت نفسه- تُسبِّح وتُمجِّد مَن بثَّ فيها هذه الأصوات. وكذلك "الطويرات التي تتسارع في الهواء حين يقودها النسيم إلى البقلة التي لا تناسبهن لمخالفة الجنس، ولا تناسب الشجيرة لمخالفة النوع؛ أوكاراً كالأرحام لطيفة حصينة من أحسن الأوكار، فيها أرزاق نظيفة لذيذة لتلك الطويرات."[٧٦]

والمقصود أنَّ تقابُل النوع والجنس وتضادهما في الطبيعة هو عين التراحم والتواصل الكوني الرفيع في الحكمة الربانية. وحيثما نرى ذبولاً في الزهرة، وإيذاناً منها بالرحيل عن عالم الكون والفساد؛ فمعناه الولوج إلى سلك البقاء في عالم أخروي عن طريق ما يتولَّد عنها من دلالات ومعانٍ وماهيات وهويات للأشياء في ذاكرة الإنسان، وفي اللوح

[٧٤] المرجع السابق، ص٤٥٠-٤٥١.
[٧٥] النورسي، **المثنوي**، مرجع سابق، ص٤٧٨.
[٧٦] المرجع السابق، ص٣٩٥.

المحفوظ[٧٧]، بحيث إذا رحل الإنسان ألفاها هناك منتصبة تعرفه بعمله تجاهها. وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

إنَّ ألم الزوال والرحيل للكائنات ومشاهدها الجمالية الطبيعية إنَّما هو بسبب فراق اللذة والمتعة التي رحلت برحيل حاملها وجوهره. بيد أنَّ لزينة الإيمان وجماله يداً بيضاءَ تكشف الغطاء عن حقيقة المحسوسات ومرجعها، فيبدو جلال الربوبية يغطي خشبة الكون بالأمل والبقاء السرمديينِ المفعمينِ بنور الإيمان؛ إنَّه جمال آخر من نوع آخر لا يُرى بعين البصر، لكنَّه يُحسُّ بالبصيرة، إنَّه جمال الجلال المُفْضي إلى فرح خالد ممتد، وليس هو فرحاً تراجيدياً موسيقياً تستمتع به الآلهة في مشهدها الكوميدي الدرامي كما تُصوِّره الأجناس الأدبية الغربية التي تقتات من التصورات المسيحية للفن والحياة، في حين يعيش الإنسان في عالم وهمي خيالي، يحتسي المعاناة، مُستغرِقاً في وهمه، يُفكِّر "وهو جالس بهدوء في قاربه وسط الأمواج."[٧٨]

ليس الأمر هكذا في الفلسفة الإسلامية القرآنية؛ لأنَّ الله الواحد مُنزَّه في عليائه عن كل لذة أو منفعة. والإنسان يكابد المشقة والألم في الدنيا والقلب مسرور بالله؛ لأنَّه تكليف إلهي مُفعَم بأشعة الأنس بأسماء الله وصفاته وأفعاله.

فالرؤية السارَّة هي الإيمان بالبقاء الحقيقي المُفعَم بالجمال والجلال، لا وهم موسيقي يفرضه الخيال كما لو كان أداة تخذير تحمل الإنسان من معاناة حقيقية إلى لذة صورية، فلا يلبث حتى يجد نفسه في عالم ملؤه نفس ما حاول الفرار منه.

إنَّ رحلة الحروب والمقاساة والفراقات الأبدية التي تُبديها حركة الكون والكائنات إنَّما هي ابتلاء ينتهي بالموت. والموت هنا بداية تسريح الوظيفة الابتلائية، ودخول المتعة الجمالية الأبدية الحقيقية التي زرعها الإيمان في سرِّ الشعور، لا الخيال والوهم. هذه هي الفكرة العامة التي تحاول الكائنات جاهدةً الاستدلال عليها، بتناسقها، وتعاونها، وأداء وظائفها التي جُبِلت عليها، وأُمِرت بها. فيبقى التحدي عند الإنسان أنْ يبصر ذلك ليعثر

---

[٧٧] النورسي، **المكتوبات**، مرجع سابق، ص٣٧٩.

[٧٨] نيتشه، فريديريك. **مولد التراجيديا**، ترجمة: ساهر حسن عبيد، اللاذقية: دار الحوار، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٠٠.

على القياس، ويقود نفسه والكائنات جميعاً إلى وحدة الخدمة وأصل الوظيفة؛ إنَّه أصل النسق التعبدي.

خامساً: من تداعيات النظرية وامتداداتها

١. إنشاء فلسفة جمالية تعليمية راقية:

لطالما اهتم النورسي بالنشء في رسائله، وأوصى بهم على قدْر اهتمامه بإنشاء فلسفة جمالية، جذورها في الغيب والإيمان، وفروعها في مناهج العلوم الكونية والمادية. لقد كانت عناية النورسي بمفاهيم الجمال الموسيقي تهدف إلى قدح زناد الإحساسية عند متعلِّمي اللغة العربية والقرآن الكريم ومعلِّميها، والارتقاء بأذواقهم إلى مستوى تلمُّس المعاني القرآنية وتجلياتها في العلوم والطبيعة، والوقوف على أسرار هاته العلوم عن طريق هذه الكليات نفسها.

فهو لا يحبس العلوم الكونية والطبيعية في قماقم مقفلة متقوقعة على ذاتها، وإنَّما يُوظِّفها لخدمة لغة القرآن، ويُوَرِّي عن جذورها في كليات الدين وقواعد الشريعة؛ عساه يجذب أنظار الآخر لكنوزها المخفية، ودفائنها المحتجبة. فما أصعبها من وظيفة! وما أخفاه من مورد! حين يعمد العالِم إلى العلوم، مُبيِّناً منبعها من كلياتها الإنسانية والكونية، ومُلِمّاً شتاتها، ومُعيداً تنزيلها بما يوافق مكامن التجديد في عصره، كما يعمد الفنان إلى مختلف الأصباغ، ويمزجها في (باليت)، ثم يأخذ بفرشاته منها ما يصلح لفكرة لوحته.

واليوم، ومع تطور الآلة، والركوع إلى الأشياء، أصبح كلٌّ من الفن والجمال يُنتَج ويُصدَّر للمتعلِّمين في الأكاديميات والمعاهد وللآخر عموماً؛ لا بوصفه فكرةً إنسانيةً وموضوعاً قيمياً، وإنَّما بوصفه وسيلةً لإخضاعه، والسيطرة عليه، وتطويعه ليغدو متناسقاً مع إمبراطورية الغرب العسكرية، والتمجيد الوثني الغريزي للأنا، كما سُطِرت في أركان (الليبيدو)، ولو سُيِّجت بسياج الفن، وسُمِّيت باسم الجمال.

ما زالت الحرب والفانتازيا المبنية على ثنائية إخضاع الضعيف للقوي هي طابع السينما والدراما في الغرب مثلاً... فأفلامه العملاقة هي التي نجحت فيها فكرة تصوير

العنف وحبكة المشاهد وإخضاعها للثلاثي المقدس: اللون الواحد (الدم)، والموسيقى الواحدة (الرعب، والخوف)، واللذة الواحدة (الجنس، وإشباع الغريزة)، تماماً كما عاشتها اليونان في الأوديسا والإلياذة... وغيرهما من الأساطير التي ما زالت منذ عصر النهضة الأوروبية تنفث غبارها في المخيال الغربي، فيعيد إنتاجها في صورة أكثر تشوُّهاً وبشاعةً.

وفكرة السلام أو الأمن كفكرة الجمال؛ "لا ترى السلام إلا حيثما يكون مُؤيَّداً بالسلاح."[٧٩] والفكرتان متآخيتان على كل حال.

٢. استثارة الإنسانية في الإنسان:

يُعَدُّ اهتمام النورسي بالمقاصد الجمالية الموسيقية اهتماماً بالكليات الأخلاقية المشتركة التي جاء بها الدين ابتداءً، حتى يمكن صياغة معادلتها في مقولة: "في البدء كانت الكليات"... هكذا على سبيل الترجيح القطعي، مثل: الحياة، والعدالة، والعبادة، والتوحيد، والجمال... وذلك لاستدعاء جميع الأجناس الكونية إلى بساط العبادة الكوني، والامتثال لسلطة الربوبية التي قضت بتكوينهم وخلقهم من حيث هم مخلوقات، وبوصف الإنسان نوعاً منها، داخلاً في زمرتها.

إنَّه منهج القرآن نفسه حين يشحن قوالب خطابه الكامل بمعاني المشترك الكلي بوصفها مقدمة أُولى، ثم يتجاوزها -بعد رصد حقيقتها الإنسانية العامة- إلى كليات إيمانية خاصة. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ (الحجرات: ١٣)، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾ (الإسراء: ٧٠). فهاتان الآيتان هما تذكير مُفعَم بالمَنِّ الإلهي والتكريم المشترك الممتد على مَرِّ الأزمان، يكتسح كل عقل أنَّى حَلَّ وارتحل؛ قصْد مراجعة الذات، وخلخلة النفس العصية التي لطالما لفَّتِ الإنسان الآدمي في سرابيل من الشهوات حالت دون أَوْبِه وتذكُّره.

---

[٧٩] ابن نبي، مالك. **مشكلة الثقافة**، دمشق-بيروت: دار الفكر، دار الفكر المعاصر، ط٤، ١٩٨٤م، ص١٢٧.

ويشبه أنْ يكون تلاشي (أو قلَّة) هذا الصدى الفطري في بواطن الخلق في العصر الحاضر هو الإلف والعادة. كلما انكفأ الإنسان على ذاته وطأطأ رأسه مُنغمِساً في دركات شهواته ولذاته تقلَّصت مساحة بصره وإبصاره، وتبلَّد إحساسه، وغلظ طبعه، وراحت الكائنات -بالنسبة إليه- أجساماً متساوقةً مع شهوته، مبهمةً تحت غريزته، قريبةً منه كقرب إصبعه من عينه، يكاد لا يبصره ولا يَعِيه. كذلك حقيقة المخلوقات إذا نظر إليها بمنظار النفس.

من هنا، كان التدبر في هذه الكائنات صقلاً للطبع، وتنظيفاً لمرآة النفس؛ عساها تعود إلى طبيعتها الفطرية الأولى، فتتكشَّف حقيقة الكائنات أمامها، وتصير حركة بسيطة في الكون لها تأثيرها الوجداني ثم العمراني، مثلما برأها الله على ذلك؛ إذ لا عبث في الكون، لا في صغير، ولا في كبير. ولطالما أكَّد النورسي -مُقرِّراً- أنَّ فعل الذرة لا يتقاعس منزلةً عن فعل المجرة. فأفعالهما وحركاتهما سيان بالنسبة إلى حواس الشعور الإنساني إذا طَهُرت بماء الوحي، وصُقِلت بثلج الماوراء.

كذلك كانت نظرة عملاق الأناضول إلى العالم، قاصداً تأسيس نهضة تركية تَسَعُ شريط الأناضول، وتمتد لتغزو العالم بسلام وجمال يداعبان أركانه بلطف وسلاسة.

وقد استجابت له الأقدار على نحوٍ عجيب لافت؛ إذ باتت مراكز البحوث النورسية في تركيا وغيرها محضناً، ليس فقط للصاحب في العقيدة، وإنَّما للمخالف من أصحاب الكتب السماوية السابقة، الشيء الذي لم يُرَ في تجارب كثير من مُنظِّري الإصلاح الحضاري.

خاتمة:

يوجد في الكون منظومتان مركزيتان تُمثِّلان جوهر الكائنات (الروح والمادة)، وتدفعانها إلى إفراز ألوان متجانسة ومتباينة من المقاصد التوحيدية والوظائف التسبيحية، تُعَدُّ مادة النسق التعبدي. وقد كان الإنسان مدعواً منذ القدم إلى اكتشاف هذا النسق، واحترامه،

ومراعاته في تفاعله الذهني والوجداني مع الكون؛ ما مكَّنه من اكتشاف المشترك الكلي بين أفراده النوعية بوصفه إنساناً، وفي ارتباطه بسائر الأنواع بوصفه مخلوقاً كونياً.

والمشترك الكلي الكوني المُتمثِّل في التوحيد والعبادة عند النورسي هو الذي دفع المصنوعات إلى تسبيح صانعها، ورسم لوحات جمالية، مادتها محاكاة الأسماء والصفات وتمثُّل الكلمات الإلهية، وصورتها الحركة والصوت والإيقاع. فينطلق الكون في رحلة موسيقة مَهيبة، لا يُحِسُّها إلا مَن صفا ذوقه، ورَقَّ طبعه، ولَطُف إحساسه. ولم تعد الكائنات بالنسبة إليه أشياءَ وأصناماً، وإنَّما مخلوقات مُفعَمة بالروح، مُكتنَزة بالعبادة، مجبولة على الامتثال، خاضعة للأمر والتنفيذ، توضح للإنسان طريق التكليف، وتُعِينه على رصد مسالك التعبد، فيرتقي من واقع النفس إلى فضاء الروح. حتى إذا تزوَّد من مَعين كلمات الله وأسمائه هناك؛ رجع مرة أخرى لإصلاح واقعه، وتضميد جراحاته، ونسج لوحات الفن والجمال، انسجاماً مع حركة التسبيح الكوني العام، وتماشياً مع محركها المزدوج: المادة والنور، أو النفس والروح، وليس أحدهما فقط؛ إنَّها جمالية النسق التعبدي، أو موسيقى الكائنات.

كذلك كان محور هذه الدراسة بوصفها مدخلاً آخرَ من مداخل قراءة التراث؛ قراءة يتداخل فيها الوحي والكون، ويتآخى العقل مع الفن، فتغدو في نهاية المطاف محطة لتناسل قضايا وإشكالات قد يكون أهمها ما يأتي:

– نظرية الجمال الكوني، وهي دراسة في كليات الجمال الكوني، ومظاهره، وعناصره كما هي في رسائل النورسي.

– البحث عن النسق الجمالي في العلوم الشرعية عن طريق علم التصوف خاصةً، ببيان القنوات الحاملة لنظرية الجمال التعبدي في مباحثه.

– البحث عن النسق المقاصدي الذي ينظم قواعد العلوم، وينضد كلياتها في عقد جامع، يسهل رصد معالم الوحدة المنهجية التوحيدية فيها، والعثور على الأنموذج المعرفي المشترك بينها.